الطريق إلى مكة

تأليف الأستاذ محمد أسد

نقله الى العربية الأستاذ عفيف البعلبكي

هو كتاب جليل، شرقي غربي، ديني مدني، ومؤلفه الأستاذ محمد أسد رجل عصامي.

أما تسمية المؤلف إياه باسمه هذا، فقد أبان أنه لمّا كان في برلين، قصد إلى صديق له مسلم هندي، ـ وقد كان رئيس الجالية الإسلامية ـ وأعلمه برغبته في الإسلام، فوضع يده اليمنى بيده، وبحضور شاهدين شهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، فقال له صديقه المسلم: لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد (Leopold) وكلمة (Leo) اليونانية معناها أسد، إذن سندعوك من الآن فصاعداً «محمد أسد» وبعد بضعة أسابيع اعتنقت[1] أولى زوجاته الإسلام. قضى المؤلف سنّ الطفولة في المدينة البولونية المعروفة بـ «لمبرج» Lemberg، وقد كانت جزءاً من بلاد النمسا، وقام في سن الشباب مع

---

(١) ولعل رواية الأصل أولى. (لجنة المجلة)

(٢) هذا وقد ذكر الأستاذ رشدي الحكيم من الانتقاد بعض ما سبقه اليه الدكتور مصطفى جواد ونشر في المجلة (مج ٣٢ ج ٣ ص ٥٣٣-٥٣٩ و ج ٤ ص ٦٨١-٦٨٤) لذلك لم نر مجالاً لإعادة نشره.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والده الرياضي المحامي برحلات واسعة في ڤينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال وبحر البلطيك ، فبدت له في رحلاته عوالم جديدة ، وكان جدّه لأمه صيرفياً ثرياً ، ذا أملاك واسعة . وأما جدّه لأبيه فقد كان حاخاماً في عاصمة مقاطعة بوكوفينا التي كانت نمسوية وقتئذ .

وقد نظر محمد أسد ، في الأديان السماوية نظر استقلال واستدلال ، فرأى اليهودية تُفَضِّل جنسها على سائر بني الإنسان ، وتسمّي نفسها شعب الله المختار ؛ ورأى المسيحية أقرب إلى العدل ، في نظرتها العامّة الشاملة للبشر ، ولكنها تفصل بين الروح والجسد ، وقد قال ما موجزه : «وبمقتضى تقاليدنا العائلية كنت قد درست على أيدي أساتذة خصوصيّين العلوم الدينية العبرانية بتعمق كبير ، لقد درست العهد القديم في الأصل ، وأصبح نصّ التلمود وشروحه مألوفين لدي ، وانهمكتُ في شروح الكتاب المقدّس المسمّاة «تارغوم» تماماً ، كما لو كان مقدّراً عليّ أن أصبح حاخاماً ؛ ولكن كان يبدو لي أن الله (تعالى) كما يمثله العهد القديم والتلمود ، كان مهتماً بأكثر مما ينبغي بالطقوس التي كان مفروضاً في عباده أن يعبدوه بواسطتها ؛ كذلك خطر لي أن هذا الإله كان منشغل البال بصورة غريبة بمصائر أمة واحدة معيّنة أعني العبرانيين ! ! ولكن بالرغم من أنّ تأثير تلك الدراسات المبكرة ، التي قمت بها ، كان على عكس ما قصد بها ، إذ أنها أبعدتني عن دين آبائي وأجدادي ، بدلاً من أن تقربني منه ، فإنني كثيراً ما أعتقد أنها في السنوات التي تلت ، ساعدتني على أن أفهم الغرض الأساسيّ للدّين» .

كانت رحلة المؤلف الأولى الى الشرق (سنة ١٩٢٢) بدعوة من خاله الدكتور الذي كان مقيماً في القدس ، فلبى الدعوة ، وكان أسد ـ كما قال ـ شاباً أوربياً (في الثانية والعشرين من عمره) ناشئاً على الاعتقاد بأن الإسلام وكل تعاليمه لم يكن ليقارن بالدينين اللذين يعتبرهما الغرب جديرين بالنظر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إليهما نظرة جدية ـ المسيحية واليهودية ـ ؛ ولكنه لمّا درس الإسلام دراسة واسعة رآه أعمّ وأشمل منهما ، أو هو مكمّل لهما ، إذ جمع بين مصالح الروح والجسد معاً .

وفي عام ١٩٢٦ م دخل في الإسلام ، وأخذ يشاطر العالم الإسلامي أهدافه وآماله . ودّع الأستاذ محمد أسد الغرب الى الشرق ، واتصل بالعرب ، فأعجب بالكرم العربي ، والصفاء البدوي ، وقابل بين العرب واليهود في مدينة القدس ، ورأى أن الحق في جانب العرب (قال) : « وبرغم أنني من أصل يهودي فقد كنت أحمل من البدء مقاومة شديدة للصهيونية » وجرى له حوار شديد مع زعيمها الدكتور حايم في القدس ، جعل بها أشد مزاعم خصم العرب من الوجهات القومية والتاريخية والوطنية هباءً منثورا ، ونصر الله حق محمد أسد ، على باطل ذلك العدو الألد . وقد نشر الأستاذ مقالاتٍ في الصحف الألمانية عن انطباعاته في فلسطين ، وعيّن مراسلاً للصحف متجولاً في الشرق الأدنى . وقد وصف عدوان الغرب على الشرق ، وأن طابع الغربيين : « التميز لعناصرهم ، والتمزيق لغيرهم » . عاش في مصر معيشة فقر وصبر ، وعاشر العرب فعرف المزايا التي امتازوا بها على الغرب في حياته . علّمه السفر الصبر على المكاره : فقد معطفه وفيه المال وجواز السفر ، فأتى دمشق من حيفا مشياً على قدميه ، وأوى إلى العرب في خيامهم ، ينام في بيوتهم ، ويأكل من طعامهم ، ورأى من عنت الطريق ومتاعبه ما لا يكاد يحتمل .

وصف دمشق البلد العربي ، والجامع الأموي ، وحسن معاملة التاجر الدمشقي ، ثم عكف المؤلف بدمشق على دراسة الإسلام من كتبه ، فبدا له أنه منهاج للسلوك الشخصي والاجتماعي ، ورجحه على كتب المهدين بأنه ليس فيه محاباة لشعب معيّن ، وبأن الروح والجسد فيه كانا بمثابة وجهي توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال المؤلف يصف رحلته : « سرنا زيد ـ رفيقه وصديقه ـ وأنا على هجينين اثنين ، ومرّت الأيام ، وكانت الليالي قصارا ، ونحن نسير باتجاه الجنوب » .

كان تأثير بلاد العرب في نفسه أبلغ من تأثير تركية وأوربة ، وصف في كتابه الحركة الوهابية ، والعقيدة السلفية ، والطريقة المستقيمة السنوسية ، والنهضة الأزهرية ، وقابل بين الإسلام والنصرانية ، وبيّن أن الإسلام انتشر في الشرق والغرب بفضائله لا بحدّ السيف .

لم يبق للمؤلف من همّ إلاّ التعرّف بإخوانه المسلمين فقد أحبهم عربا وعجما ؛ ومن بعد أن عاش مع العرب سنين ، سافر إلى إيران وأفغانستان ، ثم رحل إلى روسية ، وقصد بعدها إلى فرانكفورت ، وكان اشتهر بمقالاته عن الشرق وأهله اشتهاراً عظيما ، وأخذ من بعد يشرح حقائق الإسلام ، وأنه دين إنساني عام ، فدعا إليه ، ورغّب فيه .

نصح المؤلف لإخوانه في الإسلام بأنهم إذا تبنوا ـ وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك ـ أشكال الحياة الغربية ، والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية ، فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئا ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار ، لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه .

حج خمس مرات ، وشغفت قلبه تلك الشعائر والمنازل ، ولسان حاله ينشد قول القائل : « لك يا منازل في القلوب منازل » وصف المسلمين في الحج والثّبج كأنك تراهم ، وختم حديثة معبراً عن إيمانه وإذعانه بقوله : « من وسط هذه الوديان ، انبثق أعظم دين في تاريخ الإنسان » .

وفي طليعة الكتاب مقدمة حافلة لصديقنا الدكتور العلاّمة عبد الوهاب عزام ، أتى فيها على مجمل ما في الكتاب بأسلوب شائق مؤثر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تفضل صديقنا المؤلف فأهدى إليَّ كتابه هذا ، وكتب عليه عبارة الإهداء وأولها : إلى أقدم أصدقائي في العالم الإسلامي . . . محمد بهجة البيطار مع ودي الخالص وتقديري ؛ وإنما وصفني بأني أقدم أصدقائه ، لأني صحبته في مكة المكرمة عام ١٩٢٧ م ، ثم لقيته في دمشق ولبنان فلم تزدني معرفتي به إلا إعجاباً بإيمانه ، وبحبه الخالص للعروبة والإسلام .

محمد بهجة البيطار